Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 33:1 (1998)

بسم الله الرحمن الرحيم

تـأملات حـول التفكّـر في القـرآن

عبدالفتاح رواس قلعه جي

النص القرآني يختلف عن أي نـص وضعـيّ أو محـرّف، فهـو النص الإلهي الوحيد الباقي بتمامه متناً واكتمالاً وطاقـةً حيويـةً أبديـة. ﴿**اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِيْ وَرَضِيـتُ لَكُـمُ الْإِسْلَامَ دِيْناً**﴾. إنه ليس نصّاً تراثيا كمـا يدَّعِـي بعضهـم لأن الـتراث تنغلـق عليـه دائـرة الزمـن ماضيـا أو حـاضرا أو مسـتقبلا حتـى يصبـح رميما، وإنما القرآن كوْن يختزن الحياة وينفتح عليها أبدا، وذلك هـو المعنى المسـتفاد مـن قولـه تعـالى ﴿**إِنَّـا نَحْـنُ نَزَّلْنَـا الْذِّكْـرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَافِظُوْنَ**﴾، فيه يجدّ الفرد والجماعة والشعوب وما تتطلـب حيـاتهم من قواعد السلوك والاجتماع والسياسـة والثقافة والاقتصـاد دسـتورا لا يعتريه نقص أو فساد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة.

ومـا يجعـل القـرآن نصّـاً تامـاً مفتوحـا مطلقـا مُشِـعّاً لا تخبـو حكمته، ووجودا لايطالُه عَدَمٌ ولا تنغلـق عليـه دائـرة زمـان أو مكـان

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

كونُه صادراً عن المطلق، النور الأتم الأقهر، موجد الموجودات. غير أن الوصول إلى هذه النقطة، أو عدم الوصول إليها، يعود إلى طبيعة قراءتنا للقرآن، فإما أن تكون قراءة معرفية مفتوحة على جوهر النص ونوره وعلى متحوّل العصر، وإما أن تكون ألوانا من قراءة سلفية (تقليدية) مغلقة لا تنفتح على جوهر النص ونوره ولا على متحوّل العصر.

وما يعنينا التماسا معاصرا لنظام حياتنا وحل مشكلاتنا هي القراءة المعرفية المفتوحة، والسبيل إلى هذه القراءة هو التفكّر، والآيات التي يدعو الله عباده بها إلى التفكّر فيها عديدة، والتفكُّر أمر غير التفكير أو التأمّل، فالتفكّر حركة دينامية ذاتية وخارجية فاعلة، موقظة لكل الأحاسيس، متصلة بالحياة غير منقطعة، منتجة للإبداع، مرتبطة بالثابت الجوهري، وبالمتحوّل الحداثي، يقول اللّه تعالى ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُوْنَ﴾.

من هذا المنطلق، ومن حاجتنا في خطاب النفس والآخر، إلى تقديم قراءات معاصرة للنص القرآني، قمت بمجموعة من الدراسات القرآنية في إطار دراسات إسلامية واسعة أقدم منها هذه النماذج الثلاثة، والله ولي التوفيق.

اقــرأ: جماليّات في السينوغرافيا ودعوة إلى المعرفة اليقينية:

﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ٥ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٥ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٥ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٥ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

في هذه الدراسة المكثّفة لنص سورة العلق لا أدعي أنني أقدم تفسيرا فلست من رجال التفسير، ولكنني أنطلق من الخطاب "اقرأ" لآخذ وضع القارئ وأقدم تجربة علمية عرفانية في دراسة هذا النص القرآني دراسة أدبية وفنية تتناول فضاءات التفكّر المعرفي فيه، و الشخصيات، وسينوغرافيا العرض القرآني، وهندسة الصمت والكلام في البنية الإيقاعية، متلمسا في النص جماليات لايأتي بها المفسرون عادة، ولابد لمتتبع هذه الدراسة أن يضع النص أمامه كاملا قبل الشروع في القراءة.

اقرأ: وتبتدئ رحلة المعرفة:

"اقْرَأْ" هي أول ما نزل من القرآن على سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم، وهي السورة الوحيدة فيه التي ترد فيها كلمة اقرأ بهذا المعنى وهو الدعوة إلى المعرفة، أما "اقْرَأْ كِتَابَكَ" في سورة الإسراء فهي شيء آخر. وبما أنها أوّل القرآن وبعدها تتابع التنزيل فهي مفتاح الدخول إلى الكون القرآني، وهي مفتاح الدخول إلى الإيمان.

"اقرأ" ويبتدئ القرآن، اقرأ دعوة إلى معرفة هذا القرآن وتَدَبُّره، والذى وصفه الله بأنه: العظيم، والحكيم، والمجيد، والمبين، والعربي، وهو شفاء، وهدى، ومُيسَّر للذِّكر، وهو الكتاب الذى لاريب فيه، وهو باب لكل معرفة تنتهي بخير الإنسان، وبه أقسم، عزّ من قائل، فقال: ﴿**قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيْدِ**﴾.

اقرأ إذن دعوة إلى المعرفة، وبالمعرفة نرتاد عوَالِم القرآن والإنسان والحياة، والقراءة بهذا المعنى، وفي هذه الطريق، كشف مستمر وفتح للمقفل وتدبُّر ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ والقراءة المعرفية المنتجة هي التي تستمد طاقتها مباشرة من الخالق، فهي منه وإليه ﴿**اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ**﴾ وأول ما على الإنسان التائق إلى المعرفة أَنْ يقرأ حقيقة الخلق، ويبدأ بمعرفة خلق ذاته ﴿**الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ والآية تردّ المتتبع إلى تراتُب التكوين الإنساني في آيات أُخَر ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً، ثُمَّ لِتَبْلُغُوْا أَشُدَّكُمْ، ثُمَّ لِتَكُونُوْا شُيُوخاً، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ**﴾، ﴿**فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً**﴾. من علقة في الرحم تُنفخ فيها الروح فتهتز بالنمو والتشكّل إلى إنسان يرتاد فضاءات المعرفة والكون، أليس هذا المدى مدعاة للاستكشاف والتفكّر؟

وارتياد حقول المعرفة مفتوح ممهّد للإنسان، وليس للمستعرف أن ينقطع به الرجاء ويقع في اليأس مادام العارف المتعالي صاحبه في هذه الرحلة وممده بالمعرفة، إنه "الأكرم" يعلّمه "مالم يعلم" وهذه عبارة تشحذ طموح الإنسان إلى المعرفة وتفتح أمامه آفاقا في القراءة لا حدود لها، وقد هيأ له تثبيت علومه ومعارفه. بـ "القلم" والكتابة أعظم إبداع للإنسان في رحلة المعرفة، بها ابتدأ تدوين التاريخ الإنساني، وابتدأت الذاكرة البشرية ﴿**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾، فبالقلم العربي نزل القرآن وبالقلم الآرامي نزلت التوراة

والإنجيل، وبأقلام أخرى نزلت كتب أخرى مما نعلم وما لا نعلم، ولكل أمة قلمها، ولكن القلم لايعني الأبجدية الحروفية فحسب فقد ظهرت اليوم أبجديات ولغات خاصة مختزلة في الرياضيات والفيزياء الحديثة والمعلوماتية والاتصالات، وغيرها من العلوم، والعصر الحديث هو عصر ثورة المعلوماتية والاتصالات، وكل ارتقاء جديد لابد أن يصحبه ارتقاء بالقلم ـ اللغة، وطريق ﴿**عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ ممتدة إلى نهاية الوجود الإنساني. القلم إذن لم يعد مخصوصا بأداة الكتابة، ولا بالأبجدية الحروفية، وإنما يأخذ هذا المعنى الحركي المتوالد الشامل غير المنفصل عن الارتقاء المعرفي.

بالقلم أقسم رب العالمين ﴿**نٓ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُوْنَ**﴾ والله مُقْسِمٌ بما هو ذو فائدة وخير لمخلوقاته، فقد أقسم بالشمس وضحاها، وأقسم بالفجر، وأقسم بالتّين والزيتون، وأقسم بالضحى، وبالليل والنهار.

الخطاب القرآني الذي يبتدئ في هذه السورة بـ "اقرأ" ثم يستمر، نتلمس فيه دائما حدَّيْن للمعرفة: الربوبية والعبودية، الخالق والمخلوق، الله والإنسان وما بينهما يقوم محور الخطاب واحد في جوهره وهو الإيمان، متعدّد في موضوعاته، وهي موضوعات تتعلق كلها بالقراءة، والقراءة هنا لاتعني قراءة ما هو مكتوب في أوراق أو رقم، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل:

"ما أنا بقارئ"، ولما أعاد عليه الكرة "اقرأ" أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم ماذا يعني جبريل فسأل: "وماذا أقرأ" فكان

جواب جبريل بياناً لهُ مجالات وجوانب القراءة والتفكر، قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ....**﴾ إن الأُمّي العاقل المتفكر لايحتاج إلى تعلُّم القراءة المعهودة ليقرأ هذا الكون، ويقرأ خلق الإنسان، ليدرك الإعجاز في الخلق فيصل إلى الخالق، ولكن لابد له من مَعْلَم يستعين به ويهديه إلى المعرفة اليقينية وهذا المَعْلَم هو اسم الله، وهذا لايعني البسملة بقدر ما يعني المنطلق الإيماني، أو المقدمة الكبرى الصحيحة والضرورية للوصول إلى النتائج السليمة، أما المقدمة الثانية والضرورية للارتقاء المعرفي فهي القلم، وتلك أيضا إبداع بشري ومنحة إلهية. وما دامت المعرفة لا تنتهي، والبحث عنها مستمر، فالقراءة مستمرة، ولا بد للقارئ المتفكر أن يتمسك بأداة المعرفة الأولى في جميع مراحل المعرفة وهي اسم الله "باسم ربك" وحين ينفصل القارئ عن تفكره ويصبح مفكرا فإنه ينفصل عن أداة المعرفة الأولى، وحين ينفصل عنها يشعر بأنه صار غنيا عن الله بماله أو سلطانه أو علمه، وانفصاله عن هذا المنطلق الإيماني يجعله قابلا لأن يكون طاغية، والطغيان خروج من العبودية إلى ادعاء الألوهية بشكل ما، فإذا صار طاغية فإنه يمكن أن يستعمل علمه ومعارفه وسلطانه، الغشمية الظلامية، في تدمير البشرية ومنع الناس من الاتجاه نحو الحق ونصرته ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ**﴾ وهنا لابد من صدم ذاكرته بردّه الى حقيقته العلقية ﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ والتي تنتهي بحتمية الموت ولا بد من

تذكيره بأنه مخلوق سيعود إلى خالقه ليحاسب عما اقترفه من ضلال وطغيان ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾.

سيقول المفسرون إن المخاطب بـ "اقرأ" هو الرسول صلى الله عليه وسلم ونحن لاننفي هذا ولكننا نقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم يمثل البشرية جمعاء في هذا الخطاب، فالدعوة إلى القراءة موجهة إلى جميع الإنسان، وبهذا نجد أن الصلة وثيقة بين القسم الأول من السورة الذي يبدأ بـ "اقرأ" وبين القسم الثاني الذى يبدأ بـ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾.

الحركة المشهدية ومواقع الشخصيات في سينوغرافيا السورة:

تختلف دراسة تشكيلات المنظر في العرض القرآني عما هي فى المسرح، إنها في هذه السورة بصرية وسمعية ونفسية، والمتلقى كغيره من الشخصيات الموزعة فيها هو مفردة من مفردات هذه السينوغرافيا، بل إنه الأكثر أهمية لأنه هو المشارك والمخصوص بهذا العرض.

يبتدئ رسم المنظر من موقع القارئ ـ المتلقّي "اقرأ" ويمتد من حركة الخلق الأولى "**الَّذِي خَلَقَ**" إلى خلق الإنسان، وبدء النشاط البشري على الأرض، ثم تعلُّم الإنسان واكتشافه أسرار اللغي والكون بعون من الله وهو العقل، وهذا الإبداع الذي اختص به من دون الملائكة هو مرتكز معرفته للأسماء "﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ فالإنسان في الإسلام لم يسرق نار الأسماء ـ المعرفة ـ كما فعل بروميثوس في الميثيولوجيا الإغريقية وإنما نالها تكرمة من خالقه

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ لأن الضرورة في ارتقاء البشرية، ولأن الرحمانية الإلهية تقتضيان أن يتعلّم الأسماء ويعطي نار المعرفة فهو خليفة الله في أرضه.

وتمتد مساحة العرض فتتجاوز فضاء الوجود الأول ـ الحياة الدنيا ـ ومن غير انقطاع إلى فضاء الوجود الثاني ـ الآخرة، فإذن نحن أمام تشكيلات بارزة قاسية عتمية كلوحة مرسومة بالسكين، فثمة مشهد للقيامة والسفع بالناصية، وإذا بناصية هذا الطاغية شخصية مستقلة عن صاحبها تأخذ مكانها في سينوغرافيا العرض القرآنى فهي ناصية كاذبة خاطئة، وثمة في هذا المشهد حركة النداء والزبانية، كل ذلك يتم في إيقاع سريع ليعود بعدها بصر القارئ ـ المتلقى إلى موقع "اقرأ" من جديد.

العمل السينوغرافي في سور قرآنية أخرى يغلب عليه التشكيل البصري في وصف الجنة وما فيها من عيون جارية وقطوف دانية، أو النار وما فيها من سلاسل وأغلال ومُهْل وزقُّوم، أما التشكيل النفسي فتفرزه البصريات. غير أن العمل السينوغرافي في هذا السورة تغلب عليه تشكيلات النفس الإنسانية في هداها وضلالها، في تقواها وتكذيبها، في غناها وطغيانها، وفي عبوديتها وطاعتها، أما التشكيل البصري فمستفاد من هذا التشكيل النفسي، كما أن نظام الفواصل والعلاقات اللغوية والتعبيرية تحقّق تشكيلا إيقاعيا بِهِ يكتمل العمل السينوغرافي الشمولي في السورة.

ينظم آيات السورة كلها التفكر بالخلق، ودراما الإيمان والهدى، والكفر والطغيان والثواب والعقاب، وتبدأ بلوحتين: لوحة الخلق، ولوحة التعليم بالقلم، ثم يتصاعد العمل الدرامي في اللوحة الثالثة بظهور الإنسان الذى استغنى فطغى، وتبرز في هذه اللوحة شخصيتان متقابلتان تغنيان الصراع، شخصية تمثل المعرفة المتعالية، وأخرى تمثل الجهل المتطاغي.

ـ في المشهد شخص طاغ، مكّذب، معرض عن الحق، يَنْهَىٰ عن الصلاة والتقوى والمعرفة، إنه عقيد حارة الجهل، و إذا كان المخصوص حين النزول أبا جهل الذى نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فإن المخصوص مع استمرار هذه الآية في عمران الحياة هو كل أبي جهل، وقد عرفنا في زماننا، وعرف من قبلنا، وسيعرف من بعدنا أن آباء الجهل موجودون دائما بوسائلهم الإعلامية النفاثات في العقد، وبأسلحتهم المدمّرة للشعوب، وأدوات طغيانهم التجويع والسجن ووسائل التدمير التقليدية والشاملة.

ـ وفي المشهد شخص مهتد يأمر بالتقوى، سالك طريقا المعرفة اليقينية، طريق "اقرأ" .

ـ وعلى يمين اللوحة، في المشهد، شخص الملاحظ الذى يتبلغ الخطاب الإلهي ويبلّغه وهو في مخصوص الصورة النبي صلى الله عليه وسلم وفي عمومها واستمرار دلالتها المعاصرة، وفي صلاحيتها لجميع الأزمنة والأمكنة، كل عارف معرّف مخصوص بكلمة "أرأيت" ومن رأى فقد عرف باليقين، ومن عرف عليه أن يبلّغ

المعرفة اليقينية، فكل منا داع إلى الحقيقة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واكتمال الدين، بحيث تكون المعاني الإنسانية التي دعا إليها حاضرة دائما في الإنسان العارف المعرِّف.

ـ إذا كانت الشخصيات السابقة تمثّل في اللوحة وجودا بالعَرَض، فإن الوجود الرابع فيها والموجود في كل دقائقها هو جوهر الوجود وواجبه الذي لايرى بالعيان وإنما بالعلم، إنه الله الذي يطلع على هذا الصراع بين الإيمان والكفر، بين الهدى والضلال، بين المعرفة والجهل ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

فضاءات الصوت وشخصيات أخرى:

ما يميز العرض القرآني لهذا النص هو الإيقاع المتسارع المتنوع. إذا كانت الشخصيات المتقابلة، المشاهد والصور المتقافزة المتتابعة، تنافر الأضداد الفكرية بين الحق والباطل وحلولها في صورها اللغوية، والحركة النفسية والحسية السريعة إذا كانت هذه هي بعض المرتكزات في البناء الدرامي لهذا العرض فإن مرتكزا هاما آخر سنقف عنده أيضا هو الإيقاع المتنامي المتسارع والمتنوع، وثمة أمور يتحقق بها ضبط هذا الإيقاع وتوالده منها:

- نظام التسجيع والخروج منه فجأة إلى معادل إيقاعي يحقق التلوين والتناغم معا.
- نظام الفواصل طولا وقصرا، وما تحمل من أمداء تخييلية.
- نظام العبارة وبنية مفرداتها وعلاقاتها الصوتية والدلالية ونظام القطع والربط بين العبارات.

- نظام الالتفات في الضمائر بين المخاطب والمتكلم والغائب، وهو قائم على الاستتباع تارة وعلى المفاجأة في الانتقال تارة أخرى.

هذا وحده يحتاج إلى بحث مطوّل، غير أننا سنقف عند نظام القرع في عبارات ثلاث هي: "اقرأ" "كلا" "أرأيت"، في اطار حركة المشاهد والشخصيات.

ثمة قرع متناوب متلوّن يوقظ الإنسان المتلقي ـ المشاهد إلى الحقائق الكلية، يبدأ القرع في جو من الصمت المطبق بكلمة "اقرأ" تتوالى فيها الحروف الحلقية فيبدو القرع وكأنه آتٍ من أمداء بعيدة، ضخّمه الصدى، ويتكرر القرع مرتين في كل مرة يفتح أمام المتلقي مدى من المعرفة جديدا، أنه قرع فيه قوة ومهابة وإصرار على الإنسان كي يفتح الباب، باب القلب، ويتلقى المعرفة.

ثم يليه قرع ثان "كلاّ" إنه قرع أكثر حدة وأقل ضخامة بتشكيل حروفه، قرع مختلف أبرز الالتفات الضميري اختلافه عن الأول، قرع يمتزج فيه الأسى من مسيرة الإنسان الخاطئة بالتذكرة المشبعة بالإنذار ﴿**إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ**﴾.

ثم يأتي القرع الثالث "أرأيت" متكررا ثلاث مرات، وبالرغم من أن الكلمة واحدة في كل مرة إلا أن ثمة فرقا يلحظه المتذوق في الإيقاع، والتركيب الحروفي في "أرأيت" يختلف عما هو في "اقرأ " و "كلاّ"، هنا خمسة حروف، وثلاثة متحركات متتابعة، فساكن فمتحرّك، ثمة أناة بعض الشيء وتمهّل وانفتاح للرؤية، تليه إيقاعات

متناوبة: غاضبة في مشهد الذي ينهى عبدا إذا صلى، مطمئنة في مشهد الذي أمر بالتقوى، شديدة غاضبة، بتوالي كلمتين مشدّدتين، في مشهد الذي كذّب وتولّى، إنها ثلاثة مشاهد في لوحة الدعوة إلى الحق، الشخصيات واحدة، وثمة ثالث مراقب هو الحق "الذي يرى" في سماء اللوحة يعلن انتصار الإنسان الداعي إلى الهدى والمعرفة. ويعود القرع بـ "كلاّ" مختلفا عن الأول، فإذا كان القرع بـ "كلاّ" في البدء يتردد صداه في فضاء العالم الأول ـ الدنيا ـ فان القرع الثاني بـ "كلاّ" يتردد صداه في فضاءين: فضاء العالم الأول ـ الدنيا ـ ﴿**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ**﴾ وفضاء العالم الآخر ﴿**لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ**﴾ وقد يبتدئ السفع من الحياة الدنيا ويستمر إلى الآخرة حيث يشهد الناس النهاية التي يستحقها الطاغية. ويمتد هذا المشهد تحت مناخات "كلا" ثم تبرز شخصيات أخرى في فضاءات اللوحة الممتدّة بين العالمين، حتى لنكاد نسمع ذلك المكذّب في الدنيا وهو يدعو طاغوته الأكبر مستغيثا به يوم الحساب، ورغم نداءاته المتكرِّرة فإنه لا يجيبه ولا يغنى عنه شيئا، وثمة تقابل في النداء، فها هو رب المعرفة اليقينية، رب "اقرأ" يدعو الزبانية فيستجيبون ليسحبوا ذلك المكذّب وناديه إلى النار. ثم تعود الحركة المشهدية إلى الفضاء الأول مع القرع الثالث بـ "كلا" متردِّدا صداه في أذن النبى صلى اللّه عليه وسلم وآذان من اتبعوا الهدى وكرّسوا أنفسهم لإبلاغ المعرفة اليقينية في حركة فاعلة تتمثل في رفض الجهل والتجهيل، وفي السجود لله، وفي الاقتراب منه لاستمداد النور المعرفي، وتلك هي المفارقة بين

الإنسان وعلاقته بالآلهة في الميثولوجيا الإغريقية وبين الإنسان في الفكر التوحيدي الإيماني، إنها المفارقة بين السرقة، سرقة بروميثوس للنار وبين المناولة القريبة، ﴿**كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ وإنها أيضا المفارقة بين الصراع والرحمة.

إن السجود والإقتراب يتجاوزان هنا المفهوم الحركي والعبادي إلى المفهوم الإيماني التفكري، إن رحلة البحث التي بدأت بـ "اقرأ" ستؤدى إلى اكتشاف الحقائق الكونية في سينوغرافيا الوجود المتصل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، وهذا الاكتشاف المعرفي سيؤدى إلى الإيمان الذى لا تشوبه شائبة بموجد الوجود، إن لحظة الإدراك هذه هي السجود، ومن الطبيعي أن تنتهي الحركة العقلية التفكرية التي بدأت بـ " اقرأ" إلى حركة تالية هي حركة الابتعاد عن مصدر الضلال، عن ذلك الذي كذب وتولّى، وحركة اقتراب من مصدر المعرفة اليقينية الذي بدأت القراءة باسمه ﴿**بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾.

إذا كان القرع الأول والثاني بـ "كلا" يأتي صاخبا عنيفا فذلك أن المعرفة مرتبطة بحركة جهادية بين الإنسان الذي يأمر بالتقوى وبين الإنسان الذي ينهى العبد عن ممارسة حريته في الاعتقاد.

إن نظام الفواصل، وتكرار الكلمات التي تؤدي وظيفة القرع يوحيان بفترة صمت سابقة، ثم يليها القرع، إنها فترة صمت للتفكر

والتدبر والإنذار يتلوها صوت القرع المدوي، وتلك هندسة الصمت والكلام فى سورة ترسم للإنسان طريق النجاة بالمعرفة المتعالية.

أدوات الجهاد في آيات البلوى

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اسْتَعِيْنُوْا بِالْصَّبْرِ وَالْصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْصَّابِرِيْنَ. وَلاَ تَقُوْلُوْا لِمَنْ يُّقْتَلُ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُوْنَ. وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوْعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الْصَّابِرِيْنَ الَّذِيْنَ إِذَآ أَصَابَتْهُمْ مُّصِيْبَةٌ قَالُوآ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَّبِهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُوْنَ﴾ (البقرة ١٥٣ - ١٥٧)

ما أُصِبْتُ بمصيبة، أو اشتملني همٌّ وقلق وخوف إلا وكانت لي هذه الآيات سكنا وطمأنينة، إن لها حين تلاوتها والتفكر بها قدرة عجيبة على تفريغ جانب كبير من شحنة الحزن والخوف والقلق والألم، وهذه القدرة الشفائية التي تتمتع بها هذه الآيات يدركها من يعلم تأثير اهتزان الأحزان والهموم على النفس الإنسانية، وخطورة ذلك على حياته إن لم يجد لها تصريفا، وإن لها قدرة وقائية لأن الإنسان الذي أعدّ إعدادا نفسيا واجتماعيا على الصبر المنتج الجميل تكون له القدرة على استقبال البلوىٰ من غير أن يفقد التوازن في حياته.

حين يتعرض المرء لابتلاء يفقدُه توازنَه ويشلُّ قدراته على الحركة والمواجهه فإن الله يضع بين يديه أداتين لشحذ همته واستعادة المبادرة وهما الصبر والصلاة ﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِيْنَ آمَنُوْا اسْتَعِيْنُوْا بِالْصَّبْرِ وَالْصَّلَاةِ﴾ أما الصبر فهو أداة نفسية ذاتية، وأما الصلاة فهي أداة عبادية ووسيلة اتصال بين الإنسان وربه، ولكن الصلاة ليست الركوع والسجود فحسب وإنما هي بمعنييها اللغوي والشامل اتجاه المرء الى ربه بالدعاء والاستغفار والرحمة والتسبيح، وإذا لجأ الإنسان إلى الصبر وحده فإن الله لن يتخلّى عنه وسيجده معه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ الْصَّابِرِيْنَ﴾. هذا الإعداد النفسى والإيماني ضروري للإنسان المؤمن في حياة تتسم بالجهاد بمفهوميه: النضالي ضد العدوان والطغيان، والحياتي في معركة الحياة، حيث يأخذ الجهاد معنى أوسع يشير إليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

- هنالك جهاد ضد العدو في الحروب التي تكون في سبيل الله، وقد خص الله الذين يقتلون فيها بالحياة الدائمة فهم أحياء يعيشون بيننا بأرواحهم لا بأجسادهم من غير أن نشعر بهم، أن الحزن على فقد أحبائنا يخف أو يتلاشي حين نعلم أن الموت لايعني العدم وإنما هو نقلة من حياة إلى أخرى، وإنهم بالشهادة مستمرون في الحياة لدى خالق الحياة.

- وجهاد ضد نزغات النفس وقوى الشر المحيطة.

ـ وجهاد من أجل تأمين المرء حاجاته وحاجات أسرته الضرورية.

ـ وجهاد النفس في الصبر على البلوى وتحمل شدائد الحياة، وهذه الآيات تتناول جانبين هما الأساس: الصبر أو الإعداد النفسي والعملي في مواجهة المحنة، والجزاء أو المآل الذى ينتهي إليه الصابرون. إنها إعداد للمؤمن في مواجهة ظروف الحياة الصعبة المختلفة كي يكون إيمانه متكاملا نظريا وتطبيقيا، وإنها تدريب على سلاح أساسي به يستعيد المرء توازنه النفسي ليتابع معركة الحياة. والصبر الإنساني المقترون بـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ﴾ ليس استكانة للمصيبة أو يأسا من انفراجها ولكنه صبر فاعل دينامي يختزن حركة الحياة. ولكن الله لايقضي بالجوع والخوف فهو في القرآن يدعو إلى رفع الضر عن الإنسان، ولكن الإنسان يمارس الظلم ضد الإنسان فإذا وقع فإنه يعتبره ابتلاء في الله ويطمئنه ربه بأنه يقف إلى جانبه في جهاده ويواسيه ويثيبه على صبره ويبشره بأنها مصيبة محدودة مؤقتة وهذا ما يفيده التنكير والشيئية "بشيء، ونقص" وتتراتب في الآيات مفردات البلوىٰ: خوف، جوع، نقص في الأموال والأنفس والثمرات "وهو تراتب حسب قوة المؤثر، فقد قدّم الأعم والأهم وهو الأمن النفسي "بشيء من الخوف" ثم تلاه بموازيه في الأهمية وتاليه في الترتيب وهو الجوع، ثم يتلو ذلك المصائب الطارئة من نقص في الأموال والأنفس والثمرات.

إن المخصوص بالخطاب القرآني ليس الفرد وحده وإنما الجماعات والأمم أيضا، وهو يوصيها بالصبر الفاعل إلى أن يقوى أمرها وتناول حقها، فالجهاد ضد الاستعمار بلوى، والجهاد ضد الفقر بلوى، والجهاد ضد الظلم بلوى، وتنبثق البشارة الآلهية بالمثوبة وانفراج الأزمة بعد سلسلة من التصوير اللغوي لكثافات البلوى تبدأ بعبارة "لَنَبْلُوَنَّكُمْ "بمؤكداتها وإيقاعها الثقيل الذى يماثل إيقاع المصيبة، وإذا كان انفراج الأزمة لا يلحظ بشكل محسوس هنا فالخطاب موجه والأزمة في أوجها، فإن طوالع هذا الانفراج نطالعه في ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ﴾ كما نطالعه في مواضع أخرى من القرآن ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، إن الله تعالى يؤكد للمبتلى تواجده معه دائما كمبتلٍ ومعينٍ، والاهتمام الإلهي بالإنسان المبتلى تمثله جملة أمور يقوم عليها التعبير اللغوي:

ـ انتداب النبي صلى الله عليه وسلم لنقل البشارة ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِيْنَ﴾.

ـ جعل المبتلى في دائرة الاهتمام الإلهي والحضور الدائم من خلال "الصفة الموصولية ﴿الَّذِيْنَ﴾، الفعل والمسند ﴿أَصَابَتْهُمْ مُّصِيْبَةٌ﴾، تلقين المبتلى ما يقوله لاستعادة توازنه وإحساسه بالأمن والصحبة الإلهية ﴿إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ﴾ وهو بهذه العبارة يضع وبشكل تصويري هذه الأزمة في موضعها الحقيقي على محور الدنيا الزائلة في رحلة للمرء طويلة تبتدئ من يوم كان الإنسان لدى الله حرفا في "كن" إلى حياته الدنيوية "يكون" إلى عودته ثانية إلى الله

﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ﴾ راجعون في حياة مستمرة لا يقطعها الموت ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُوْنَ﴾ وعلى هذا المحور الطويل يتجلى للإنسان المؤمن حجم البلوى التي هو فيها فإذا هي ضئيلة زمانيا ومكانيا بالنسبة لحياة كونية تمتد من الكون الأول إلى الكون الثاني، وإذا هي ضئيلة أيضا بالنسبة لحجم الثواب والعناية التي يلقاهما المبتلى من ربّه.

يواسيك إنسان، يزورك، يحادثك فتشعر بالراحة، وتشعر بأنك لست وحدك، وأن ثمة من يشاركك آلامك، فكيف إذا كان الله هو زائرك ومواسيك ومحادثك وراحمك ﴿أُوْلَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَّبِهِمْ﴾ لقد صلى الله وملائكته على نبيّه ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلآئِكَتَهُ يُصَلُّوْنَ عَلَى النَّبِيّ﴾ وها هو يرفع الصابرين في البلوى إلى هذا المقام، مقام الرحمة والتعظيم، ويخصهم بالاهتداء ﴿وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدَوْنَ﴾ فالهدى ليس إيمانا نظريا فحسب وإنما هو سلوك في الحديث القدسي أن الله عزوجل يقول يوم القيامة، يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال: يارب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي.

إن دلالات الخطاب القرآني لاتستكمل بمعزل عن القرآن نفسه وعن الأحاديث النبوية والقدسية. ونحن في جميع هذه النصوص نجد ـ على سبيل المجاز ـ إن الله ينزل من علياء سمائه ليقف إلى جانب عبده الإنسان راحما ومواسيا وناصرا، ويضرب بذلك المثل ليكون الإنسان مركز الاهتمام بالنسبة للإنسان. ان الأنساق الإشارية في هذه الآيات توظف كلها لتجعل الإنسان في دائرة الاهتمام وهي تتراتب كما يلي: الضمير في لنبلونكم، الإشارة في أولئك ثم تكرارها، الضمير في عليهم، وفي ربّهم.

في علاج الأمراض العصبية والنفسية تستعمل المهدئات الدوائية، وهي ذات مفعول محدود ولها آثارها السلبية، وهي غالبا ليست شفائية، أما هذه الآيات فلها مفعول المهدئ غير أنها لا تترك آثارا سلبية، وهي علاجية شفائية تخرج من أصَابته الشِّدّة من دائرة اليأس إلى دائرة الصبر والأمل، كما أنها تعيد تشكيل شخصية المبتلى ليكون إنسانا قويا في مواجهة الشدائد، متقويا عليها بصلوات من الله ورحمة.

وقفت طويلا في قراءة هذه الآيات عاجزا عن إدراك الجمالات الروحية والنفسية فيها بالرغم من أنها التي لجأت إليها دائما في المحن والمصائب العديدة التي أصابتني، حتى إني كنت أكتبها وأعلقها على الجدار لأقرأها باستمرار فيكون لها في نفسي تأثير شفائي عجيب، إلى أن لمع أمامي بارق من أسرار لا متناهية تمثل لي في الحركة.

لابد للمبتلي الحزين المهموم أن تخرجه من سكون اليأس إلى حركة الأمل، لتعيد إليه الثقة بالنفس والقدرة على متابعة الحياة، ومن نقطة بدء الحركة هذه تبدأ حركة الشفاء، هذه الحركة تتمثّل في حركة الضمائر والنداء والإشارة.

تبدأ الحركة بحركة النداء " **يَآ أَيُّهَا**" خطاب مباشر موجه من الله إلى المؤمنين، يذكرهم بإيمانهم ليكون منطلقا لحركة المواجهة، كما يقدم لهم اثنتين من أدوات الإيمان للاستعانة هما: الصبر والصلاة. ثم تتوالى حركة الضمائر في: استعينوا، ولا تقولوا، والتي يتداخل فيها المتكلّم مع المخاطب. ثم تخالط هذه الحركة حركة الأنفس المفجوعة وهي ترى قتلاها على الأرض، ثم يتغيّر محور الخطاب ويظهر على هذا المحور ضمير الغائب في " **يُقْتَلُ** " وهكذا تتلاحم الضمائر الثلاثة الظاهرة والمستفادة: المتكلم والمخاطب والغائب.

ونشهد نقلة أخرى في الضمائر "**أموات**" فالمتكلم هنا ليس الله وإنما المؤمنين الذين ينظرون إلى قتلاهم فيقولون "هم أموات" ويليه التصحيح بالاضراب مباشرة من الله، والمتكلم هو الله " **بَلْ أَحْيَاءٌ**" ثم يعود الخطاب الى المؤمنين "**وَلَكِنْ لاَّ تَشْعُرُوْنَ**". وتستمر حركة الضمائر من المتكلم المخاطب في "**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ**" إلى المتكلم الله، إلى المخاطب النبي صلى الله عليه وسلم "**وَبَشِّرِ**" إلى الغائب الحاضر "**الصَّابِرِيْنَ**" "**أَصَابَتْهُمْ**" " **قَالُوْا** " ليبرز بعدها المتكلم وهو الذي وقعت عليه المصيبة مؤكدا بـ "**إِنَّا لِلّٰهِ**"

الآن وقد اطمأن الله إلى عباده المبتلين الصابرين قد وضعوا على الطريق السليمة، وخرجوا من سكون اليأس إلى حركة الأمل تأتي الإشارة التي يمتزج فيها المخاطب "أولئك" بحركة الغائب لغة الحاضر دلالة وصورة "عليهم"، وتليها حركة هطول الصلوات الربانية الرحمانية، كأننا أمام مشهد مطري، وتغسلهم الصلوات الربانية كما المطر، وتشرق علي نفوسهم شمس الرحمة الإلهية، وقد اجتازوا طريق الهدى إيمانا وسلوكا فأصبحوا جديرين بالاصطفاء الإلهي والقرب، وبخصوصية الإشارة الربانية إليهم بقوله ﴿**وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُوْنَ**﴾.

ثنائيات الرحمة في سورة الرحمٰن

﴿**الرَّحْمٰنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾

أرأيت وأنت تبحث عن واحة تستظل بها من نصب الحياة وعنائها وفلقها، هل تجد خيراً من جنة ظليلة فيها النعم مبذولة؟ أو تبحث عن قريب تسكن إليه روحك، هل تجد خيراً من صاحب يبسط لك جناح الرحمة والمودة، تلجأ إليه، فتستحم بجمالات روحِه روحُك؟

تلك هي الرحمة الصغرى، أمَّا الرحمة الكبرى فهي التي حضّ بها الله الإنسان، وفي أرجاء الكون يتردّد هذا الصوت الداعي باسمه إلى رحمته، العميق المطمئن: "**الرَّحْمٰن**" هذا بفتح رب السماوات

والأرضين للإنسان باب الرحمة ليستقبله بحنو الخالق على خلقه، تسعى إليه النفوس راضية مطمئنة مستبشرة.

والرحمة الكبرى تتمثل في القرآن الذي جمع فيه هذا الوجود، وجعله له ناموساً. القرآن كلام الله من قبل أن يخلق الإنسان ولهذا نجده مقدَّما في السورة "**عَلَّمَ الْقُرْآنَ**" ترى لمن علمه قبل خلق الإنسان؟ الآيات تصمت والدلالات تشير إلى أنه علَّمَهُ الوجود، وبه قام نظامه، القرآن إذن متعلم الوجود كله، وبما أنه كلام الله، أي أمره وإرادته ومشيئته، فهو نظام هذا الوجود من قبل أن يخلق الإنسان وبعده.

ثم خلق الإنسان فعلمه القرآن بلغة الإنسان فكان البيان "**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**": بالقرآن يقرأ الإنسان الوجود، فيدرك جوهر الحقائق، وتَبِينُ له اسرار النفس والحياة والكون. وتبين له الحقيقة الإلهية الكبرى.

القرآن نظام الوجود ولولاه لانهار الكون، والقرآن نظام الإنسان به تستقيم عقيدته وسلوكه، وبه يعرف حقائق الوجود فإذا عطّل القرآن ، وسيأتي يوم ذلك، سينهار الكون تتكوَّر شمسه وتنتشر نجومه وتنفجر بحاره.

وإذا عطل القرآن سينتهى الوجود الإنساني، وتتبعثر القبور ويدرج الناس سكارى إلى يوم الحساب؛ وإذا عطّل القرآن، لفّ الفناء الكون وقامت القيامة.

أرأيت أن القرآن أعظم رحمة من الله إلى الوجود، وأن القرآن أعظم رحمة من الله إلى الإنسان. بعد هذا تبدأ سلسلة من الحقائق العينية المشخَّصة والعرض الحسّي البصري والعقلي لآلاءِ الله بتشكيلات ثنائية تقوم على التكامل والتناغم ، وليس على التناقض والتضاد: الشمس والقمر، النجم والشجر، السماء والأرض، الحَبُّ والريحان، الإنس والجان، المشرقان والمغربان، اللؤلؤ والمرجان، النار والنحاس، الجنتان، عينان تجريان، ثم تأتي ثنائية الجزاء ﴿هَلْ جَزَآءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ﴾.

وبما أنها كلها من مخلوقات الله، مسخّرة لفائدة نظام الوجود ونظام الإنسان، فهي ثنائيات رحمة، بعيدة كل البعد عن الثنوية العقيدية، بل تبدو كرد غير مباشر على تلك الثنوية المنحرفة عن التوحيد.

إذ كانت المانوية والديانات الثنوية تقيم نظامها العقيدي، وتفسّر الكون والحياة والتاريخ على أساس الثنوية الضدّية فإن كل اثنين في هذه السورة متآلفان تجمعهما العبودية لله. الشمس والقمر يجمعهما قرآن ذلك النظام الدقيق الذي يجريان عليه، يقابلهما في الأرض شجر سامق ونبات ضئيل لاساق له. يجمعهما السجود لله ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ كلاهما يبدآن من بذرة في الأرض، وينموان في شروط واحدة للحياة والإنبات والوظيفة، وهذا الخضوع للنظام الدقيق في الحياة هو السجود. وقس على هذه الثنائية ما لم تذكره الآيات: القوي والضعيف، الغني والفقير، تجمعهما العبودية

لله، وبهذه العبودية يصبح القوي ضعيفاً، و الضعيف قوياً، والنجم شجراً، والشجر نجماً، والقمر شمساً، والشمس قمراً، وذلك بخضوعها جميعاً في شروط وجودها وحياتها لمن له المُلْك، ومن أقامها بقران الوجود الإلٰهي.

ناموس واحد، ميزان واحد، قائم في السماء التي رفعها، والأرض التي وضعها مسخّرة للبشر وهو ميزان قائم على العدل ﴿**وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيْزَانَ. أَلاَّ تَطْغَوْا فِيْ الْمِيْزَانِ. وَأَقِيْمُوْا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوْا الْمِيْزَانَ**﴾ وبما أن الإنسان مستخلف من الله على الأرض، خصّه بالعقل، وأعطاه البيان، فهو مطالب أن يقيم ميزانه ونظامه على العدل بحيث يكون الميزان الإلهى الذي رفع به السماء وأقام الكون مثاله. هكذا يأخذ الميزان بالإضافة إلى دلالته القريبة في وزن الأشياء بالعدل في البيع والشراء، دلالة أعم وأشمل، كونية، وكما أن خروج الأجرام والذرّات والأشياء عن نظامها، عن قرانها، عن النظام العادل الذي ضمها وجعلها متآلفة يؤدي إلى طغيان بعضها على بعض وإصابة الكون بدمار جزئي أو كلي فإن خروج الإنسان عن العدل الإلهي، وحَيَدَانِه عن القسط يؤدي إلى الطغيان ودمار الأنفس والمجتمعات وثمة علاقة أخرى وثيقة تشير إليها هذه الآيات، وهي أن ما سخر الله للإنسان في الأرض ﴿**وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ**﴾ يجب أن تكون علاقته بها متناغمة بالحب ومع الوظيفة التي وجدت من أجلها علاقة عادلة قائمة على القسط، فلا يقوم بتدمير الطبيعة التي تؤمن له شروط الحياة لأن تدميرها نوع من

الطغيان، إن العلاقة بين الله والإنسان، وبين الله والكون، وبين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والطبيعة هي "الرحمة" ، ولهذا تبدأ السورة باسم من وسعت رحمته السموات والأرض **"الرَّحْمٰن"** وكلمة الرحمن يعتبرها المتألهون في الفكر الإسلامي اسماً لذات خالق السماوات والأرض مثل "الله " لاصفة كباقي الصفات.

بعد هذه المقدّمة الرحمانية الكبرى ينتقل المشهد إلى الأرض حيث خلق الله كائنين: الكائن الترابي، الإنسان، والكائن الناري، الجان، وتتوالى مفردات النعم لمن خلق مثنى مثنى، فاكهة ونخل ، حب وريحان، المشرقان والمغربان ومن حركة الشمس والقمر كانت نعمة التوقيت. لنتصوَّر أنّ الإنسان يعيش بدونها بلا زمن ومن نعمه البحران اللذان لا يلتقيان: مياه البحر المالحة ومياه الأنهار والينابيع العذبة، ولنتصور ما تكون عليه حياة الإنسان لو طغت ملوحة البحر والأرض على مصادر المياه. وتتوالى النعم: اللؤلؤ والمرجان، السفن التي تحملها قوانينها الفيزيائية الإلهية. وثمة نعم لا تحصى يتعرفها الإنسان بالاستقراء.

هذه المفردات التي تشكل الخطاب الإلهي، وليس القصد منها التعداد أو الحصر، خلقها الله من أجل الحياة واستمرارها على الأرض التي وضعها للأنام، وخلال هذا العرض لهذه الآلاء المرئية بالحس والمستفادة بالتفكر يجيء السؤال الموجه للإنس والجان **﴿فَبِأَيِّ آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** وتتحوّل عبارة السؤال هذه بتكررها في السورة إلى لارفة ايقاعيه تطرق الأذن والفكر وتدعو الإنس

والجن إلى التنبه والتفكر والوصول إلى الإيمان بالله باستقراء مخلوقاته.

كل مخلوق مآله الفناء ويبق الخالق وحده، والفناء أمر عيني نراه كل يوم، موت الكائنات الحية وزوال الحكومات، وتعاقب الليل والنهار، والكوارث الطبيعية، وموت الأجرام السماوية ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُوالْجَلَالِ وَالْإِكْرَام**﴾ والخالق هو المقصود وحده في طلب الحاجة بالنسبة لمخلوقاته "**اللَّهُ الصَّمَدْ**" وإليه يتوجّه بالسؤال كل مخلوق في الأرض أو السماء والله مجيب السائلين ﴿**أَمَّنْ يُجِيْبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاه**﴾ فهو في تدبير دائم لهذا الكون ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِيْ شَأْن**﴾ أهنالك تكريم أعلى للإنسان من أن يكون الله هو مدبرَ أمره وأن يكون تدبيره للكون قائماً لصالح الإنسان، فأي نكران أعظم ، وأية معصية أكبر من أن يكفر الإنسان بسيّد نعمته، ولهذا يتدفّق الغضب الرباني وتتصاعد دراما الوجود إلى الذروة ويأتي الخطاب الإلهي مهولا ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَان**﴾ وتتالى صور انهيار الكون، ويبحث الجن والإنس عن النجاة من أقطار السموات والأرض فلا يجدان ﴿**يَامَعْشَرَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوْا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوْا لَاتَنْفُذُوْنَ إِلَّا بِسُلْطَان**﴾ وتتم النقلة إلى يوم الحساب عبر كلمة واحدة "يَوْمَئِذٍ" ولا نجد تفصيلا لهذا اليوم كما في سور أخرى، المشهد هنا مختلف، فمن بيت الجموع الزاخرة يوم الحشر لايخطئ أحد معرفة المجرمين الذين لم يخافوا هذا المقام من ربّهم، من سيماهم،

وبحركة خاطفة يؤخذون من نواصيهم وأقدامهم، وفي التفاتة أخرى نجدهم أمام جهنَّم التي كانوا ينفون وجودها.

إن مقام الرحمة في السورة يقتضي اختصار صور العذاب من غير تجاهله، كي نعرف الذين لم يؤمنوا بهذا المقام، وإن هذا المقام يقتضي التوسُّع في صُوَر النعيم، واتّساقاً معَ البناء الفنّي المتكامل للسورة والقائم على الثنائيات فإن ثنائيات النعمة والثواب تستمر: جنتان: ومن دونهما جنتان، عينان تجريان، من كل فاكهة زوجان، الياقوت والمرجان، رفرف خضر وعبقريّ حسان ... لتنتهي أخيراً في ثنائية العظمة والرحمة.

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

هكذا تنتهي السورة بمثل مابدأت به فيض من الرحمة "الرحمن" وفيض من الإكرام وتنفتح أمام المؤمن آفاق لا حدود لها من الرحمة والعناية والتكريم، وبذلك تكتمل دائرة الرحمة التي تتوزع على محيطها حقائق الوجود السماوية والأرضية، الدنيوية والأخروية منذ أن علم الله القرآن فخلق الإنسان فعلمه البيان، و وفّر له أسباب الحياة، إلى أن عطل القرآن، وحدث الانهيار الكوني، وكانت النقلة الكبرى إلى الوجود الثاني ـ القيامة ـ فديار العذاب وديار النّعيم.

وعذابه ونعيمه رحمة، لأن العدل هو أساس حكمه، آنذاك سيجد المعذب يوم القيامة راحة في عذابه لأنه معادل للذنب الذي اقترفه، وسيكون معذباً إن لم يلق هذا العذاب، ويجد المثوبُ راحة

في الثواب لما يلقى من التكريم، وهكذا تشتمل الرحمة الجميع في الوجود الثاني، والجن والإنس مدركون إياها غاية الإدراك كما اشتملتهم في الوجود الأول ـ الدنيا ـ فأدركها بعضهم وقصر بعضهم عن الإدراك.

تلك هي جماليات الرحمة، تظهر من خلال المفردات الحسية والعينية في سورة الرحمن وفي هذه السورة نطالع دراما الوجود الكونية من خلال مشاهد متلاحقة، سريعة حيناً متأنية حيناً آخر، يأخذ جمالُها الغنيُّ بمجامع الحسّ، تتوالى في حركة تصاعدية متنامية، تبدأ بالتعليم والخلق وبسط الآلاء الربانية لتصل إلى الذروة في الانهيارات الكونية و وعيد الحق، وجذب المجرمين من نواصيهم وأقدامهم ثم تخف شدتها وعنفها لتنبسط أمام العين نعميات الجنان.

ولكل مقام إيقاعه الخاص، إلا أن المتفكّر في الجماليات الفنّية لهذه السورة لايخطئ الوِحْدَة الإيقاعية فيها، وتساهم الآية التي تتكرر ﴿**فَبِأَيِّ آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ في تحقيق هذه الوِحْدَة، كما تقوم بدور الضربات الإيقاعية التي توقظ المتفرج الغافل في مسرح الوجود، كأنك تضرب بمطرقة ضخمة على صحيفة من النحاس.

وتأخذ النّون المسبوقة بحرف المدّ في الآيات دورها في البنية الإيقاعية كوتر منفرد يوقّع عليه لحن مؤثر دائم الحضور. إنه لحن الوجود في هذا العرض الدرامي الكوني على مسرح الوجود المتّصل من بداية الخلق إلى تمام دورته في مشهد الختام

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذَوالْجَلَالِ وَالْإِكْرَام﴾ حيث تنفتح أمامنا أمداء لا نهاية لها من الرحمة الربانية التي تحملها "تَبَارَكَ".

هذه بعض الجماليات التي استطعنا اصطيادها في حقول النعميات والجمالات في هذه السورة، وقادنا إليها التفكّر، أبحرنا خلالها على سفينة العجز في بحر لا شواطئ له..... والله أعلم.